دور الماء في البيئة من منظور القرآن الكريم

حسن رضائي[1]

خلاصة البحث

يُذكر الماء في القرآن الكريم كنعمة ورحمة إلهية، وقد بُين دوره في عالم الخلق وأثره في البيئة بنحو بارز. إن العديد من آيات القرآن تشير إلى العلاقة المباشرة بين حياة الكائنات الحية والماء، مما يظهر المكانة المهمة للماء ودوره الحيوي في البيئة. في هذه المقالة، سعينا -من خلال المنهج التوصيفي التحليلي- لتحليل وتوضيح دور الماء الفريد في مختلف مجالات البيئة استنادًا إلى آيات القرآن. يعد الماء مصدر الحياة، بالإضافة إلى كونه مظهرًا رائعًا للقدرة الإلهية، ويسهم في عمليات تأمين الغذاء والصحة، والزراعة، وغيرها من المجالات.

المفردات الرئيسة: الماء؛ البيئة؛ القرآن الكريم.

١. أستاذ مساعد في قسم الفقه والأصول في مركز المصطفىﷺ الدولي للبحوث والدراسات، جامعة المصطفىﷺالعالمية؛ tadvin@miu.ac.ir

المقدمة

الماء مادة تتكون من مركب الهيدروجين (Hydrogen) والأوكسجين(Oxygen) ، وصيغته الكيميائية هيH_2O ويحتوي كل جزيء من الماء على ثلاث ذرات، اثنتان منها ذرات هيدروجين وواحدة ذرة أوكسجين. يعد الماء -بعد الزئبق- أكثر المواد ذات التوتر السطحي، وهذا يساعده على أن يحمل أجسامًا أثقل منه على سطحه. وقد استفادت صناعة الشحن البحري من هذه الميزة على مدار تاريخ الإنسان. يوجد الماء في الطبيعة بثلاثة أشكال: غاز، سائل، وصلب. ويتحول الماء النقي عند سطح البحر، عند صفر درجة مئوية، إلى جليد. وفي الحالة الصلبة، وعند مئة درجة مئوية، يغلي ويتحول إلى بخار.

كان مصدر المياه محل اهتمام ودراسة العلماء منذ العصور القديمة. والرأي السائد هو أنه قبل حوالي ٤ مليارات سنة، عندما بردت قشرة الأرض، توفرت الظروف اللازمة لدمج الهيدروجين والأوكسجين، فبدأت كتلة البخار التي غطت الأرض في السقوط على شكل أمطار غزيرة[١]. هذه الأمطار، على مدى آلاف السنين، ملأت الأراضي المنخفضة. ربما يمكن تفسير الآيات التي توجد في القرآن الكريم عن نزول الماء من السماء واستقراره في الأرض[٢] وفقًا لهذا المفهوم. بعض هذه المياه شكلت البحار والمحيطات، وبعضها تسرب داخل طبقات الأرض مكونًا خزانات مياه جوفية عميقة، بينما بقيت بعض المياه على السطح ليستخدمها الإنسان بطرق متنوعة. إن جزءاً كبيراً من المياه يدور في مدار منتظم يعرف بالنظام الهيدروليكي، حيث تظل في حركة دائمة بين الأرض والهواء، وهذه المياه تشكل المصدر الرئيسي للإنسان للحصول على الغذاء والماء، وهي متاحة له وللكائنات الحية الأخرى في أشكال المطر، والأنهار، والينابيع، والآبار، والقنوات.

أهمية الماء في القرآن

تناول القرآن الكريم موضوعات متعلقة بالماء من خلال مفردات مختلفة. وقد وردت كلمة "ماء" في القرآن ٦٣ مرة. ومن الكلمات الأخرى التي استخدمها القرآن: "سقى" ٢٥ مرة؛ "شرب" ٣٩ مرة؛ "غيث" ٣ مرات؛ "ودق" مرتين؛ "غسل" ٣ مرات؛ "معين" ٤ مرات؛ "غرق" ٢٢ مرة؛ "عين" ٣٠ مرة؛ "نهر" ٥٤ مرة؛ و"بحر" ٤١ مرة.

تشير هذه الآيات إلى أن الماء نعمة ورحمة وبركة إلهية، وأن حياة جميع الكائنات الحية تعتمد على الماء، وأن عرش الله قائم على الماء. وفي هذه الآيات، يشار إلى الدورة الطبيعية للماء ودوره في خصوبة

١. دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، ١/١.
٢. المؤمنون: ١٨ -٢٣.

وإحياء الأرض، وزيادة جمال الطبيعة، ونمو النباتات المتنوعة، وظهور المراعي، والمزارع، والحدائق ذات الأشجار المختلفة، وكذلك أنواع الفواكه. كما يُذكر نزول الماء على الجبال العالية، وتوفير ماء الشرب العذب للبشر والحيوانات، وإنشاء الجداول والأنهار الكبرى، وتسخير مياه البحار للبشر.

وتعد الخزانات المائية، مثل البحار، الأنهار، الينابيع، والآبار، من الموضوعات الأخرى المتعلقة بالماء التي أشار إليها القرآن الكريم، كما أكد دور الماء في الطهارة والصحة البدنية والعقلية للبشر. وفي بعض الآيات، يؤكد المسائل التاريخية المتعلقة بالماء أيضًا، مثل نشوء المياه الخارقة، وغرق بعض الأمم الظالمة في الماء، ووجود الماء في الآخرة كأحد نعم الجنة وعذابات النار. وفي جميع هذه الآيات، يشير القرآن الكريم بدقة إلى المسائل العلمية المتعلقة بالماء، ويؤكد الأهداف التربوية المرتبطة بالهداية، موجهًا عقول البشر من التركيز على العوامل المادية التي تؤمّن الماء إلى العامل الرئيسي لتوفير الماء، وهو الله سبحانه وتعالى.

أهمية الماء في القرآن الكريم

يُعبّر عن الماء في القرآن الكريم بالنعمة، والرحمة، والبركة، والرزق الإلهي. وهذه التعبيرات تبرز المكانة المهمة للماء في الثقافة القرآنية. كما ذُكر في القرآن أن عرش الرحمن على الماء، وذُكر أن حياة جميع الكائنات الحية مرتبطة بالماء، مما يشير إلى المكانة المهمة للماء ودوره الحيوي في الحياة.

١. الماء نعمة إلهية

بعد أن يذكر القرآن الكريم خلق السماوات والأرض، يؤكد نعمة الماء وفوائدها المباشرة وغير المباشرة للبشر: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ... وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾**[١].

وفي الآيات ٤٨ إلى ٥٠ من سورة الفرقان، يُذكر نزول الماء الطهور من السماء، وإحياء الأرض الميتة وتوفير الماء اللازم للإنسان والحيوانات، حيث يدعو الناس للتفكر في هذه النعمة الإلهية: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾**. وفي الآيات من ٥٧ و٥٨ من سورة الأعراف، يُدعى الناس إلى شكر هذه النعمة: **﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾**. وفي الآيات من ٦٨ إلى ٧٠ من سورة الواقعة، يُدعى الناس للتفكر في ماء الشرب وتأكيد أن الله وحده هو الذي أنزل الماء العذب من

١. إبراهيم: ٣٢، ٣٤

السحب، وأنه قادر على تحويله إلى ماء مالح ومرّ[١]: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. وفي الآية ١٢ من سورة فاطر يُذكر البحران المالح والعذب وفوائدهما، مع تأكيد الهدف من ذكر هذه النعمة وهو أن يشكر الناس الله تعالى.

٢. الماء بركة سماوية

في الآية ٩٦ من سورة الأعراف يُذكر الماء كبركة سماوية: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وفي الآية ٩ من سورة ق، يعد ماء المطر مباركًا: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

٣. الماء رزق إلهي

يُعبَّر في العديد من الآيات عن الماء بالرزق، مما يدل على دوره الأساسي في توفير الرزق للبشر. ففي الآية ٢٢ من سورة الذاريات، ورد: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. وفي أقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام، فُسر الرزق في هذه الآية بأنه المطر. قال الإمام علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية أن المراد بالرزق هنا المطر[٢].

والآية ٥ من سورة الجاثية تعد أكثر وضوحًا في التعبير عن ماء المطر كرزق: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. وفي الآية ٦٠ من سورة البقرة، يُعبر عن الماء كرزق إلهي: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

قال الإمام الصادق: عليه السلام

> وَاعْلَمْ يَا مُفَضَّلُ أَنَّ رَأْسَ مَعَاشِ الْإِنْسَانِ وَ حَيَاتِهِ الْخُبْزُ وَالْمَاءُ فَانْظُرْ كَيْفَ دُبِّرَ الْأَمْرُ فِيهِمَا فَإِنَّ حَاجَةَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْمَاءِ أَشَدُّ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَى الْخُبْزِ وَ ذَلِكَ أَنَّ صَبْرَهُ عَلَى الْجُوعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى الْعَطَشِ وَالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْخُبْزِ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِشُرْبِهِ وَوُضُوئِهِ وَغُسْلِهِ وَغَسْلِ ثِيَابِهِ وَسَقْيِ أَنْعَامِهِ وَزَرْعِهِ فَجُعِلَ الْمَاءُ مَبْذُولًا لَا يُشْتَرَى لِتَسْقُطَ عَنِ الْإِنْسَانِ الْمَئُونَةُ فِي طَلَبِهِ وَتَكَلُّفِهِ وَجُعِلَ الْخُبْزُ مُتَعَذِّراً لَا يُنَالُ إِلَّا بِالْحِيلَةِ وَالْحَرَكَةِ لِيَكُونَ لِلْإِنْسَانِ فِي ذَلِكَ شُغْلٌ يَكُفُّهُ عَمَّا يُخْرِجُهُ إِلَيْهِ الْفَرَاغُ مِنَ الْأَشَرِ وَالْعَبَثِ.[٣]

١. تفسير الآيات الكونيّة: ٦٠، ٦١.
٢. الدر المنثور: ٦/١١٤.
٣ توحيد المفضل: ٨٧.

٤. الماء رحمة إلهية

يُعبر عن الماء في القرآن بأنه رحمة إلهية: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[١] فسرَ أكثر المفسرين "مبشّرات" بأنها الرياح التي تبشر بالمطر، و"رحمة" بأنها المطر[٢]. الآية ٥٧ من سورة الأعراف تعد المطر رحمة من الله أيضًا، وتصف الرياح بأنها مبشّرات بنزول المطر: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**﴾ وقد فسر المفسرون الرحمة في هذه الآية بالمطر.

دورة الماء في البيئة

رسم القرآن الكريم في آيات مختلفة دورة الماء الطبيعية. وبحسب التعاليم القرآنية، تتشكل دورة الماء من خلال تكوُّن السحب، ومن ثَم تحرك السحب بواسطة الرياح، وهطول الماء من السحب، وتخزين الماء في الموارد الطبيعية تحت الأرض، وتدفق المياه المخزنة على سطح الأرض.

١. تشكيل السحب

تتكون السحب تدريجيًا مع مرور الوقت ومن خلال مراحل مختلفة: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ**﴾[٣]. كلمة «ينشئ» تعني الحدوث والنمو شيئاً فشيئاً[٤].

إن المرحلة الأولى لتشكل السحب هي تبخير المياه السطحية من الأرض بواسطة الشمس: ﴿**وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۞ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**﴾[٥] ويمكن أن يشير ذكر الشمس التي تُشع بالحرارة إلى تأثير حرارة الشمس في تبخير المياه وهطول المطر.

أما المرحلة الثانية فهي تجميع السحب المتفرقة واندماجها. ففي الآية ٤٣ من سورة النور، أُشير إلى تجمع السحب: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**﴾.

في هذه الآية، ذُكر تراكم السحب باستخدام تعبيرين: «ركام» و «جبال». وقد فسر الشيخ الطوسي

١ الروم: ٤٦.
٢. مجمع البيان: ٤٨٣/٨؛ التفسير الكبير: ١٠٧/٢٥.
٣. الرعد: ١٢.
٤. مفردات الراغب: ٨٠٧.
٥. النبأ: ١٣ و١٤.

«ركام» بأنها السحب المتراصة، و «ودق» بأنها قطرات المطر، و«جبال» بأنها السحب الجبلية[١]. ويعتقد بعض المفسرين أن الآية تشير إلى حقيقة مهمة، وهي أنه عند النظر إلى السحب من السماء، تكون مشابهة للجبال في الارتفاع والانخفاض، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال السفر بالطائرة فوق السحب. لذلك، المعنى هنا سيكون أن الله يُنزل البَرَد من السحب التي تشبه الجبال[٢]. ومن هذه التعبيرات المختلفة، يمكن أن نلاحظ تنوع السحب.

٢. انتقال السحب بواسطة الرياح

ذُكرت للرياح في القرآن الكريم عدة وظائف، ومن بينها ربط السحب وتحريكها: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[٣]. وفي آية أخرى تُذكر الرياح كحاملات بشارة للمطر: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[٤].

من خلال تدبر هذه الآية، يمكن استخراج عدة نقاط مهمة:

أولًا- الرياح هي رسل تبشر بقدوم المطر.

ثانيًا- الرياح لها قوة كبيرة تستطيع تحريك الغمام الثقيلة والملآنة بالماء.

ثالثًا- الله يحيي الأراضي الجافة والموتى بالماء الذي ينزل من الغمام.

رابعًا- الله يثمر الأرض بالماء الذي ينزل من الغمام ويخرج به مختلف الثمرات.

خامسًا- إحياء الأرض بعد موتها هو دليل على إمكانية البعث وقيام الموتى يوم القيامة.

وثمة وظيفة أخرى للرياح هي الإخصاب: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**﴾[٥]. فيما يتعلق بتفسير التلقيح بواسطة الرياح، هناك رأيان بين المفسرين:

الأول- هو أن الرياح هي التي تساعد على تلقيح السحب.

الثاني- هو أن الرياح تعمل على نقل حبوب اللقاح بين النباتات والأشجار لتخصيبها[٦].

١. التبيان: ٤٤٦/٧.
٢. تفسير الأمثل: ٥٠٤/١٤.
٣. الروم: ٤٨.
٤. الأعراف: ٥٧.
٥. الحجر: ٢٢
٦. مجمع البيان: ٥١٤/٦؛ التفسير الكبير: ١٣٤/١٩؛ التبيان: ٣٢٩/٦.

وقد ذكر المفسر ملا فتح الله الكاشاني أن تلقيح النباتات هو أحد الاحتمالات المذكورة[١]. كما أن أحمد محمد سليمان فسر الآية بأنها تشير إلى تلقيح النباتات، وعدَّ الرياح من العوامل الأساسية في ذلك[٢].

كان الطبرسي من أوائل من فسر التلقيح في الآية بأنه تلقيح السحب[٣]. ومن المعاصرين الذين فسروا الآية بأنها تشير إلى تلقيح السحب بواسطة الرياح: مكارم الشيرازي[٤]، مهدي بازرگان[٥]، وأحمد أمين[٦]. كما عدَّ بعض الكتاب المعاصرين أن الآية تكشف أحد أسرار الكون الكبرى، وهي تلقيح السحب والنباتات، ورأوا في ذلك معجزة علمية في القرآن.

٣. نزول الماء من السحب

في القرآن الكريم، توجد تعبيرات متعددة حول نزول المياه من السماء، وتظهر في العديد من الآيات. وبناءً على الظاهر في أغلب هذه الآيات، ينزل الماء من السماء: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾[٧]، ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[٨]، ﴿**وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾[٩]. وتوجد عدة آيات تشير إلى نزول الماء من السحب: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**﴾[١٠].

ونظرًا للوضوح البديهي لنزول الماء من السحب عدَّ المفسرون في العصر الحديث أن "السماء" تشير إلى الغمام، ويشرحون نزول المطر وفقًا للنظرية الشهيرة. ومع ذلك، يمكن تمييز رأيين حول تفسير "السماء" في هذا السياق. فالمفسرون القدامى يقبلون ظاهر الألفاظ ويعدون أن السماء هي مصدر المطر. على سبيل المثال، يذكر الطبري في تفسير آيات من سورة البقرة (٢٢، ١٦) وسورة الأنعام (٦، ١٩٩) وسورة الأعراف (٧، ٥٧) وسورة الحج (٢٢، ٦٣) أن المطر ينزل من السماء، وفي تفسير الآية ١٨ من سورة المؤمنون،

١. منهج الصادقين: ١٥٨/٥.
٢. القرآن والطب: ٢٤-٢٦.
٣. مجمع البيان: ٥١٤/٦.
٤. تفسير الأمثل: ٦١/١١.
٥. الريح والمطر: ٥٩ - ١٢٦.
٦. طريق التكامل: ٥٧.
٧. النحل: ١٠.
٨. الحج: ٦٣.
٩. الزخرف: ١١.
١٠. النبأ: ١٤

يورد نفس التفسير عن ابن جريح. ومع ذلك، من بيان الطبري في تفسير الآية ٤٨ من سورة الفرقان ومما نقله في تفسير الآية ٤٣ من سورة النور عن عمرو بن عبيد الليثي، يمكن استنتاج أن السحب هي المصدر الرئيسي للمطر، وأن "السماء" هي في الواقع "الغمام".[١]

عدَّ الشيخ الطوسي في كتابه "التبيان" السماء مصدرًا للمطر[٢]، وذكرَ أن المقصود من "السماء" في آيات المطر هو "الغمام"[٣]. وبهذا يتضح أن الرأي السائد بين المفسرين هو أن المطر يأتي من السماء[٤].

وأضاف الزمخشري تفسيرات عديدة في تفسيره للآية ٢١ من سورة الزمر والآية ١٤ من سورة النبأ تبين اتفاقه مع الرأي الشائع بين المفسرين[٥].

أما الطبرسي، فمع أنه أحيانًا يذكر السماء كمصدر للمطر[٦]، إلا أنه في تفسير أغلب الآيات يعتقد أن المقصود بـ "السماء" هو "الغمام"، مؤكدًا أن التعبير عن السماء بدلاً من الغمام يعود إلى أن السماء هي المكان الذي توجد فيه الغمام، وأن استخدام "السماء" هو لجمالية الكلام[٧].

أما البيضاوي، فقد فسر "السماء" بأنها الغمام أو الفلك أو العوامل السماوية التي تبخر الماء من الأرض. ومع ذلك، يعتقد أن المطر ينزل من السماء عبر الغمام ومن ثم على الأرض[٨].

وكان الفخر الرازي أكثر من قدم تفسيرًا شاملاً لآيات المطر. حيث يعتقد أن الله يخلق المطر في السماء ثم يرسله إلى الغمام ومن ثَم إلى الأرض[٩]. وقد وافق أبو علي جمال الدين على نفس الرأي وقال إنه لا يجوز تفسير الآيات القرآنية خلاف ظاهرها إلا إذا كان هناك دليل على امتناع نزول المطر من السماء[١٠]. وهو يعترض على أولئك الذين يفسرون "السماء" بأنها "الغمام"، أي أنها نتيجة تبخير جزء من المياه الموجودة في الأرض والبحار، ولا يرى أي سبب لتأويل نص القرآن. مع ذلك، في تفسير الآية ٣٢ من سورة إبراهيم قد قبِل نفس الرأي بسبب المشاهدات الخارجية وعدَّ الاختلاف في المسألة غير

١. تفسير الطبري: ١١٨/١٨.
٢. التبيان: ٣٩٥/٧.
٣. المصدر نفسه.
٤. المصدر نفسه: ٢٥٦/٢، ٢٥٧.
٥. الكشّاف: ٢٤٦/٣؛ ١٢٢/٤، ٦٨٢.
٦. مجمع البيان: ١٤٨/٤.
٧. المصدر نفسه: ٦١/١، ٢٤٥؛ ٣٤١/٢.
٨. المصدر نفسه، ٦١/١، ٢٤٥؛ ٣٤١/٢.
٩. التفسير الكبير: ١١١/٢؛ ٢٢٣/٤؛ ١٠٥/١٣، ١٠٧؛ ٩٠/٢٤.
١٠. المصدر نفسه: ٨٣/١٣.

ذي فائدة[١]. وفي تفسير آيات المطر، نقل المجلسي رأي الرازي بتوجه إيجابي، وذكر ازدواجية وجهة نظره التفسيرية في هذا الشأن.[٢]

٤. تخزين الماء في المصادر الجوفية

يذكر القرآن أن هطول الأمطار يحصل وفق مقياس معين، وتُخزّن هذه المياه بتدبير إلهي دقيق في مصادر جوفية منتشرة في الأرض: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**﴾[٣].

وقد تأمل المفسرون في كلمتي "بقدر" و"فأسكنّاه" تأملاً كبيراً. وفسر أغلبهم كلمة "بقدر" بأنها تعني "مقدارًا معينًا"، وهذا يعني أن المطر لا يكون بكثرة تضر بالأراضي، ولا بقلة تضر بالنباتات والكائنات[٤].

ويعتقد العلامة الطباطبائي أن "بقدر" تشير إلى أن ما ينزل من المطر إنما ينزل وفق التدبير الإلهي الكامل الذي يحدد كل شيء بدقة أي أنه لا تنزل قطرة أكثر أو أقل مما يقتضيه التدبير[٥].

من وجهة نظر المفسرين، فإن جملة «**فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ**» تشير إلى مسألة تخزين المياه في المصادر الجوفية. وأشار بعض المفسرين إلى طبقات الأرض النفاذة وغير النفاذة، قائلين إنه إذا كانت جميع طبقات الأرض نفاذة، لكانت مياه الأمطار تغور في أعماق الأرض، مما يؤدي إلى شح المياه للبشر. ولو كانت جميع طبقات الأرض غير نفاذة، لظلّت المياه على سطح الأرض وتلوثت وتعفنت. لذلك، جعل الله الأرض بهذه الطريقة لكي تُخزن المياه في المصادر الجوفية، وتستخدم عبر الينابيع والآبار والقنوات[٦].

في تفسير هذه الآية، يروي علي بن إبراهيم القمي عن الإمام الباقر عليه السلام أن مياه الأمطار تنفذ إلى الأرض وتخزن فيها، ثم تتحول إلى أنهار وعيون وآبار يستفاد منها[٧]. وقد أضاف الآلوسي والعلامة المجلسي أن هذه الآية تُنكر نظرية الفلاسفة حول مصدر مياه الينابيع والآبار، حيث يعتقد الفلاسفة أن مياه الينابيع والآبار ناتجة عن تراكم بخار الماء المحبوس في باطن الأرض وتحوله إلى ماء، ولكن

١. المصدر نفسه: ٩٦/١٩.
٢. بحار الأنوار: ٣٤٤/٥٦- ٣٧٠.
٣. المؤمنون: ١٨.
٤. التفسير الكبير: ٢٦٨/٢٣؛ مجمع البيان: ١٦٢/٧؛ التبيان: ٣٥٦/٧؛ روح المعاني: ٢٢١/٩؛ الكشّاف: ١٧٩/٣.
٥. الميزان: ٢٣/١٥.
٦. التفسير الأمثل: ٢١٧/١٤.
٧. تفسير القمي: ٩١/٢.

هذه الآية تدل على أن مياه الينابيع والآبار هي نفس مياه الأمطار المخزنة في المصادر الجوفية[١].

إن الآية ٢٢ من سورة الحجر تشير أيضًا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد نظم الطبيعة بحيث تنفذ مياه الأمطار في الأرض وتُخزن في المصادر الجوفية الطبيعية، وأن البشر لا يستطيعون القيام بذلك. ﴿**فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾. من هذه الآية نستطيع أن نستنتج أن أحد أهداف نزول المطر هو توفير المياه اللازمة للبشر، ولكن من أجل تحقيق هذا الهدف يجب أن تُخزن المياه، ولا يمكن ذلك إلا بواسطة الله الذي يخزنها في المصادر الطبيعية للأرض. وقد ذكر الطبرسي في تفسير هذه الآية:

> **ما أنتم أيها الناس له بحافظين ولا محرزين بل الله يحفظه ثم يرسله من السماء ثم يحفظه في الأرض ثم يخرجه من العيون بقدر الحاجة ولا يقدر أحد على إحراز ما يحتاج إليه من الماء في موضع**[٢].

في الآية ٣١ من سورة النازعات، يُذكر تخزين المياه في المصادر الجوفية بهذه الطريقة: ﴿**أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا**﴾ ويمكن استنتاج أن الله سبحانه يخزن بعض المياه في باطن الأرض، ثم يخرجها لتلبية احتياجات البشر والحيوانات. من وجهة نظر أحد المفسرين المعاصرين، يخزن الله سبحانه مياه الأمطار والثلوج في الأرض كما لو كانت خزانات مائية كبيرة ومتعددة، ثم يخرجها من خلال الينابيع والأنهار والآبار والقنوات[٣].

٥. جريان الماء على سطح الأرض

الحلقة الأخيرة في الدورة الطبيعية للمياه هي جريان المياه المتساقطة من السماء على سطح الأرض. حيث يرى القرآن أن جزءاً من الأمطار يُخزن في باطن الأرض ويتدفق عبر الينابيع والقنوات على سطح الأرض:

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ**﴾[٤]. ويمكن استخراج بعض النقاط من هذه الآية الكريمة:

النقطة الأولى: هي أن مياه الأمطار تخترق الأرض، بحيث تنساب تدريجيًا إلى داخل الأرض

١. روح المعاني: ٢٢١/٩.
٢. مجمع البيان: ٥١٤/٦.
٣. التفسير الجديد: ٤٥.
٤. الزمر: ٢١.

وتنضم إلى خزانات المياه الكبيرة. وكلمة "سلوك" تشير إلى هذه الفكرة، حيث تعني "السير التدريجي"، وفي هذا السياق، تشير إلى دخول الماء تدريجيًا إلى باطن الأرض بسبب الخصائص المميزة للأمطار وسطح الأرض، أي أن الأمطار تتساقط بشكل متتابع وعلى مراحل صغيرة وليس دفعة واحدة، مما يسهل اختراقها للأرض.

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أن الله أراد أن ينزل المطر من السماء ببطء، مقدرًا أن يسقط قطرة قطرة حتى يخترق الأرض لتروي الأرض. وإذا كانت الأمطار تتساقط دفعة واحدة، فإنها لن تخترق الأرض بل قد تؤدي إلى تدمير النباتات والأشجار.

النقطة الثانية: هي أن الآية تشير بوضوح إلى أن هذه المياه المخزنة في الأرض تتحول إلى قنوات وعيون وآبار. هذا الموضوع ذُكر بوضوح في بعض الأحاديث. فالعلامة المجلسي، بعد نقل وتفسير الآيات وذكر العديد من الروايات[1]، قال إن العديد من الفلاسفة والحكماء يعتقدون أن سبب تدفق مياه القنوات والعيون هو حبس البخار داخل الأرض، مما يؤدي إلى تحركه بسبب خفته والفجوات بين مكوناته، وعندما يبرد الهواء يتحول هذا البخار إلى ماء ممزوج بالبخار. وعندما يزيد هذا الماء الممزوج بالبخار بحيث لا تتحمل الأرض كميته، يحدث ضغط يؤدي إلى تشقق الأرض وتدفق الماء على شكل عيون. وإذا كان الضغط أقل، يتدفق الماء بشكل ضعيف أو يبقى في شكل عيون راكدة. وإذا كان الضغط أقل من ذلك، فإن الماء لا يتدفق ويجب حفر بئر للوصول إليه.

أضاف العلامة المجلسي أنه هناك رأياً آخر لأبي البركات البغدادي في هذا الموضوع، حيث يرى أن المياه الناتجة عن الثلوج والمطر تتسرب إلى الأرض، ومن خلال تسربها إلى باطن الأرض، يزداد تخزين المياه في المصادر الطبيعية الجوفية وتصبح الطبقات المائية أغنى، مما يؤدي إلى ظهور الينابيع والقنوات والآبار. ويبدو أن أبا البركات البغدادي أخذ هذا الرأي من ابن سينا في كتابه "النجاة". ومن المحتمل أن ابن سينا قد استقى هذا المفهوم من القرآن الكريم والأحاديث، خاصة ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد. يروي المفضّل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى هَذِهِ الْجِبَالِ الْمَرْكُومَةِ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ الَّتِي يَحْسَبُهَا الْغَافِلُونَ فَضْلًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا وَالْمَنَافِعُ فِيهَا كَثِيرَةٌ فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهَا الثُّلُوجُ فَيَبْقَى فِي قِلَالِهَا لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَذُوبَ مَا ذَابَ مِنْهُ فَتَجْرِيَ مِنْهُ الْعُيُونُ الْغَزِيرَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ مِنْهَا الْأَنْهَارُ الْعِظَامُ[2].

قال الإمام علي عليه السلام أيضًا بأن الله سبحانه يخرج الينابيع من الأراضي المرتفعة ويجعلها تتدفق في

١. بحار الأنوار: ٦٢٣/٥٠.
٢. المصدر نفسه: ١٢٧/٣.

السهول والصحاري[١].وفي تفسير هذا القول، يذكر المجلسي باستخدام روايات أخرى أن الينابيع تتشكل من المياه المخزنة في باطن الأرض، ولكن نظرًا لأن الجبال هي مصدر تشكل الأنهار والعيون، فإن الجبال والعيون وردتا معًا في الروايات[٢]. كما يعتقد المفسرون أن هذه الآية تشير بوضوح إلى أن مياه الينابيع هي نفسها المياه المتساقطة من السماء والمخزنة في الأرض[٣].

ويتدفق جزء آخر من الأمطار على سطح الأرض، حيث تتدفق الأودية والمجاري المائية، كل منها بحجم قدرته، لينقل مياه الأمطار في مجراه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٤].

دور الماء في حياة البشر

الماء مصدر الحياة

استنادًا إلى التعاليم القرآنية، يعد الماء مصدرًا أصليًا للحياة ومصدرًا لاستمرارها. في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء، يُذكر أن أصل خلق كل كائن حي هو الماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. كما تُشير الآية ٤٥ من سورة النور إلى أن أصل خلق كل دابة هو الماء: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ﴾ وتذكر الآية ٥٤ من سورة الفرقان أن أصل خلق الإنسان هو الماء: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾[٥].

وقد عدّ بعض المفسرين "جعلنا" بمعنى "خلقنا"، مما يعني أن الآية تشير إلى أن الماء هو أصل خلق الكائنات الحية، سواء كان الماء هنا بمعنى النطفة أو بمعنى الماء بشكل عام. ويدعم سيد قطب هذا الرأي، معتقدًا أن الآية تثبت حقيقة عظيمة يرى العلماء أن إثباتها اكتشاف كبير للعلم، وهي أن الماء هو أول مهد للحياة. أما بعض المفسرين الذين فسروا "جعلنا" بمعنى "أحيينا"، فيعتقدون أن الآية تشير إلى دور الماء في استمرارية الحياة أيضًا. وقد ذكر الطبرسي هذا التفسير وأشار إلى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام التي يقول فيها:

طَعْمُ الْمَاءِ طَعْمُ الْحَيَاةِ[٦].

وبحسب الاكتشافات العلمية الحديثة، فإن الماء هو العنصر الأساسي المكون للخلية في جميع

١. المصدر نفسه: ٥٧/١٦.
٢. بحار الأنوار: ٢٣/٦-٥٠.
٣. التبيان: ١٩/٩؛ روح المعاني: ٢٤٤/١٢؛ الميزان: ٢٥٥/١٧؛ التحرير والتنوير: ٦٢/٢٤؛ مجمع البيان: ٧٧٣/٨.
٤. الرعد: ١٧
٥. في ظلال القرآن: ٢٣٧٦/٤.
٦. مجمع البيان: ٧٢/٧.

الكائنات الحية من حيوانات ونباتات، وله دور أساسي في كل التفاعلات الكيميائية الحيوية في الأجسام الحية. ويرى العلامة الطباطبائي أن العلاقة بين الحياة والماء -التي أصبحت واضحة الآن بفضل الدراسات العلمية الحديثة- هي معجزة قرآنية دائمة[١].

مكانة الماء في تغذية الإنسان والحيوان

تؤكد العديد من الآيات دور الماء في توفير الغذاء للإنسان والحيوان. ففي الآية ٢٧ من سورة السجدة، يقول الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ**﴾. فهنا يشير الله إلى دور الماء في إحياء الأرض الجرز وزراعة المحاصيل التي تأكل منها الحيوانات والإنسان.

وقد ذكر الله في آيات أخرى دور الماء في تغذية الإنسان والحيوان معًا، مثل قوله: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ**﴾[٢]. كما ذكر في آية أخرى: ﴿**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ**﴾[٣]. حيث يشير إلى أن الماء الذي ينزل من السماء يُخرج أنواعًا مختلفة من النباتات التي يتغذى منها الإنسان والحيوان.

وتتعدد الآيات التي تشير إلى دور الماء في تأمين ماء الشرب للإنسان والحيوان. ففي الآية ٤٨ من سورة الفرقان، يقول الله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً طَهُورًا لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾". كما أشار إلى أن الماء هو مورد الشرب للإنسان والحيوان في عدة آيات، مثل قوله تعالى: ﴿**فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾[٤].

وفي الآية ٢٧ من سورة المرسلات، يُشار إلى توفير الماء العذب الصالح لشرب الإنسان والذي ينبع من الجبال: ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا**﴾. ومن جهة أخرى، يمكن تقديم مثال على طلب الإنسان للماء في الآيتين ١٦٠ من سورة الأعراف و٦٠ من سورة البقرة. وفي الآية الأولى، يطلب قوم موسى منه الماء للشرب: ﴿**إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ**﴾، وفي الآية الثانية، يطلب موسى من الله الماء لقومه، فيضرب بعصاه الصخرة بأمر الله، فتتفجر منها اثنتا عشرة عينًا ويُؤمَّن الماء لقوم بني إسرائيل. ويعد الله تعالى في الآية ١٠ من سورة النحل الاستفادة من الماء حقًا للجميع: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ**﴾.

١. الميزان: ٢٧٩/١٤.
٢. يونس: ٢٤.
٣. طه: ٥٣، ٥٤.
٤. حجر: ٢٢.

وتتناول بعض الآيات دور الماء في ريّ الحيوانات، مثل ما يظهر في الآيات ٢٣ إلى ٢٥ من سورة القصص. تتحدث الآية الأولى عن دخول موسى عليه السلام إلى بئر مدين، حيث رأى مجموعة من الناس يسقون أنعامهم، ورأى امرأتين تقومان بإبعاد غنمهن عن البئر، فتوجه إليهما وسألهما لماذا لا تسقيان غنمكما؟ فأجابتا بأنهما تنتظران أن يذهب الرعاة: ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ**﴾. بناءً على ما ورد في الآية الثانية، اقترب موسى عليه السلام وألقى دلوه في البئر وسقى لتلك الفتاتين: ﴿**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾.

الماء العذب، مظهر مدهش لقدرة الله

في الآية ٥٣ من سورة الفرقان، أُشير إلى عدم اختلاط المياه العذبة والمياه المالحة في البحر مع أنهما يتواجدان جنبًا إلى جنب كأحد مظاهر قدرة الله العجيبة في خلقه، حيث يلفت انتباه الإنسان إلى النعمة العظيمة التي منحه إياها: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا**﴾.

لقد دعا الله تعالى المكذبين بالمعاد للتفكر في الماء الذي يشربونه، وكيفية توفيره لهم، لكي يتعرفوا على قدرته: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ**﴾[1]. هذه الآيات تؤكد أهمية الماء الصالح للشرب في حياة البشر، وتبين أن السحب والمطر هما المصدر للمياه العذبة الصالحة للشرب، وتُظهر أن الماء نعمة يجب شكر الله عليها أيضًا، وإذا شاء الله يمكنه أن يحوله إلى ماء مالح ومرّ.

وقد وصف أهل البيت عليهم السلام الماء في أحاديثهم بأنه أفضل مشروب في الدنيا والآخرة[2]، وأُشير في بعض الروايات إلى لذة شرب الماء البارد[3]. ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قيل:

مَنْ تَلَذَّذَ بِالْمَاءِ فِي الدُّنْيَا لَذَّذَهُ اللهُ مِنْ أَشْرِبَةِ الْجَنَّة.[4]

قال العلامة المجلسي:

التلذذ بالماء يحتمل وجوهاً: الأول التأمل في لذته ومعرفة قدر الماء والشكر عليه. الثاني شربه

١. الواقعة: ٦٨، ٦٩، ٧٠.
٢. وسائل الشيعة، ج١٧، ص٢٧، ١٨٧.
٣. الكافي: ٦/٣٨٢.
٤. ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ١٨٤.

مصاً وبثلاثة أنفاس وبالتأني كما سيأتي لأن إدراك لذة الماء فيه أكثر. الثالث أن يكون المعنى التلذذ به عوضا عن الأشربة المحرمة. الرابع أن يكون المعنى الشرب عند عدم غلبة العطش لإدراك اللذة كما يومئ إليه بعض الأخبار الآتية.[١]

وفي بعض الروايات، نرى تشديداً على أهمية إرواء العطشى، حيث جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن سقي العطشان أفضل صدقة[٢].

أهمية الماء في حياة الأقوام السابقة

تُظهر قصة تقسيم الماء بين قوم صالح وناقته أهمية الماء في حياة الأقوام القديمة أيضًا. فقد أمر الله تعالى في الآيات ٢٧ و٢٨ من سورة القمر نبيه صالحًا عليه السلام بأن يخبر قومه أن الماء في القرية قد قُسم بين الناس وناقة صالح، بحيث يشرب كل واحد منهم في دوره، ولكن قوم صالح لم يستجيبوا لتحذير الله، وعاقبهم الله بالعذاب بعد أن قاموا بقتل الناقة: ﴿**وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ۞ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ**﴾.

دور الماء في الصحة والسلامة

إن التناسب بين طهارة الماء وإحياء الأراضي وشرب الحيوانات والإنسان يظهر دور الماء في الصحة العامة بشكل أوسع من مجرد الصحة الفردية، ويشمل الصحة الاجتماعية، وتطهير الطبيعة، وخلق بيئة خالية من أي نوع من التلوث الضار.

دور الماء الصحي

ثمة آيات عديدة تشير إلى طهارة الماء، وقدرته على التطهير، ودوره الصحي. ففي الآية ٤٨ من سورة الفرقان قال الله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا**﴾. يرى معظم المفسرين أن كلمة "طهور" تعني معنى المبالغة، وتفسر بأنها تطهير وطهارة[٣]. بينما يرفض الزمخشري المبالغة في كلمة "طهور" ويفسرها إما صفة بمعنى "طاهر" أو اسم آلة بمعنى "أداة التطهير". وفي الآية ٤٩ من نفس السورة، يوضح الله تعالى أن نزول الماء الطهور يهدف إلى إحياء الأرض الميتة وتوفير الماء الصالح للشرب للحيوانات والبشر: ﴿**لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾.

١ بحار الأنوار: ٤٥٤/٦٣.
٢. التهذيب: ١٣٨/٤.
٣. التبيان: ٤٩٦/٧؛ مجمع البيان: ٢٦٧/٧؛ التحرير والتنوير: ٦٩/١٩؛ الميزان: ٢٢٦/١٥.

بعض العلماء في العصور الحديثة قد أشاروا إلى أن الماء الذي ينزل من السماء لا يساهم فقط في جلاء أوراق الأشجار، بل يساعد في التخلص من الميكروبات المنتشرة في الهواء أيضًا، وعندما يتدفق على الأرض فإنه ينقل التلوثات إلى الأنهار والبحار أو إلى داخل الأرض[١].

والآية ١١ من سورة الأنفال تؤكد بوضوح دور الماء في التطهير: **﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾**. هذه الآية تشير إلى أن الله تعالى أرسل النوم والراحة كنعمة منه، ثم أرسل الماء من السماء لتطهيرهم، وإبعاد رجس الشيطان عنهم، وربط قلوبهم وتثبيت أقدامهم. ومع أن هذه الآية تتعلق بهبة إلهية للجيش الإسلامي في معركة بدر، إلا أنها تشمل مفهومًا أوسع للصحة البدنية والروحية أيضًا. فالآية تشير إلى تطهير جسدي بواسطة الماء، وفي الوقت نفسه، إلى تطهير روحي من وساوس الشيطان. قد يكون هذا التطهير الروحي ناتجًا عن الوساوس الشيطانية[٢] أو من النجاسة بسبب الجنابة في تلك الليلة أو كليهما[٣]. وبناء عليه، تشير الآية إلى نوع من الطهارة الروحية.

توجد في التشريع الإسلامي بعض العبادات، مثل الصلاة، التي تتطلب نوعًا من الطهارة بالماء بشكل خاص وشرعي، كما ورد في الآية ٦ من سورة المائدة التي تشترط أن يغسل المسلم وجهه ويديه حتى المرفقين، ويمسح رأسه وقدميه في حالة خاصة، وأن يغتسل في بعض الحالات. جميع هذه الآيات تؤكد التأثير الروحي والمعنوي للتطهير إلى جانب تأثيره الظاهري.

أشار الأئمة المعصومون عليهم السلام إلى أهمية الماء في الحفاظ على الصحة العامة والتطهير. كما جاء في معراج النبي صلى الله عليه وآله:

وَكَانَتِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ إِذَا أَصَابَهُمْ أَذًى مِنْ نَجَاسَةٍ قَرَضُوهُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ وَقَدْ جَعَلْتُ الْمَاءَ لِأُمَّتِكَ طَهُوراً فَهَذَا مِنَ الْآصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَرَفَعْتُهَا عَنْ أُمَّتِك.[٤]

بالإضافة إلى ذلك، فإن توصيات الأئمة عليهم السلام بغسل اليدين قبل الطعام وبعده، وغسل الفواكه قبل تناولها، تؤكد أهمية الماء من الناحية الصحية.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

إِذَا أَرَدْتَ الطَّهَارَةَ وَ الْوُضُوءَ فَتَقَدَّمْ إِلَى الْمَاءِ تَقَدُّمَكَ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ

١. المطهّرات في الإسلام: ٢٢.
٢. التبيان: ٨٦/٥.
٣. مجمع البيان: ٨٠٦/٤.
٤. الاحتجاج على أهل اللجاج: ٢٢١/١.

الْمَاءَ مِفْتَاحَ قُرْبَتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ وَ دَلِيلًا إِلَى بِسَاطِ خِدْمَتِهِ وَكَمَا أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ تُطَهِّرُ ذُنُوبَ الْعِبَادِ كَذَلِكَ النَّجَاسَاتُ الظَّاهِرَةُ يُطَهِّرُهَا الْمَاءُ لَا غَيْرُ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً﴾ وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ﴾ فَكَمَا أَحْيَا بِهِ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كَذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ جَعَلَ حَيَاةَ الْقَلْبِ بِالطَّاعَاتِ فَتَفَكَّرْ فِي صَفَاءِ الْمَاءِ وَرِقَّتِهِ وَطُهْرِهِ وَبَرَكَتِهِ وَلَطِيفِ امْتِزَاجِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَاسْتَعْمِلْهُ فِي تَطْهِيرِ الْأَعْضَاءِ الَّتِي أَمَرَكَ اللهُ بِتَطْهِيرِهَا وَتَعَبَّدَكَ بِأَدَائِهَا فِي فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ فَإِنَّ تَحْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فَوَائِدَ كَثِيرَةً فَإِذَا اسْتَعْمَلَهَا بِالْحُرْمَةِ انْفَجَرَتْ لَكَ عُيُونُ فَوَائِدِهِ عَنْ قَرِيبٍ ثُمَّ عَاشِرْ خَلْقَ اللهِ كَامْتِزَاجِ الْمَاءِ بِالْأَشْيَاءِ يُؤَدِّي كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ عَنْ مَعْنَاهُ مُعْتَبِراً لِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ كَمَثَلِ الْمَاءِ وَ لْتَكُنْ صَفْوَتُكَ مَعَ اللهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ طَاعَتِكَ كَصَفْوَةِ الْمَاءِ حِينَ أَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ وَ سَمَّاهُ طَهُوراً وَ طَهِّرْ قَلْبَكَ بِالتَّقْوَى وَ الْيَقِينِ عِنْدَ طَهَارَةِ جَوَارِحِكَ بِالْمَاءِ[1].

دور الماء في العلاج

توجد إشارات في القرآن الكريم حول دور الماء في علاج الأمراض. ففي الآيات ٤١ و٤٢ من سورة ص، ذُكرت حالة النبي أيوب عليه السلام حيث شكا مرضه إلى الله، فأوحى إليه أن يضرب الأرض برجله ليظهر له ينبوع ماء بارد ليشرب منه ويتوضأ به: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۞ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**﴾. ومع أن الآية تذكر ظاهرة غير طبيعية لظهور الماء لأيوب، فإنها لا تنفي تأثير الماء وأصنافه المختلفة في علاج الأمراض.

وتُشير الآية ٩٧ من سورة آل عمران إلى وجود آيات واضحة من الله في مكة، ومن بين هذه الآيات "ماء زمزم" الذي يعد من أبرز المعجزات في مكة، وقد وردت العديد من الأحاديث عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد أن ماء زمزم سبب للشفاء وإزالة الأمراض. كما توجد روايات أخرى تشير إلى فائدة أو ضرر شرب الماء بكميات كبيرة أو صغيرة، وكذلك تأثير شرب الماء البارد أو الساخن[2].

لو أخذنا العلاج بمعناه الأوسع، فإن استخدام ما يؤثر بشكل خاص في صحة جسم الإنسان يمكن أن يعد علاجًا. ومن خلال الآيات الأخرى، يمكن العثور على إشارات أخرى إلى دور الماء في الشفاء، مثل الآية ٩ من سورة ق: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا**﴾، التي تدل على وجود الخير والنفع في ماء المطر. كما تُشير الآية ١١ من سورة الأنفال: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ**﴾، إلى أن الماء له تأثير تطهيري. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا السياق:

١. مصباح الشريعة: ١٢٨؛ بحار الأنوار: ٨/٣٤٠.
٢. بحار الأنوار: ٦٣/٤٤٥- ٤٨١.

اشْرَبُوا مَاءَ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ يُطَهِّرُ الْبَدَنَ وَيَدْفَعُ الْأَسْقَامَ[١].

وقد وردت العديد من الأحاديث حول الخصائص العلاجية للماء وخاصة ماء المطر. على سبيل المثال، قال النبي ﷺ:

عَلَّمَنِي جَبْرَئِيلُ دَوَاءً لَا أَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى دَوَاءٍ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا ذَلِكَ الدَّوَاءُ قَالَ يُؤْخَذُ مَاءُ الْمَطَرِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الْأَرْضِ.[٢]

أُشير في الروايات إلى خواص ماء "نيسان"[٣] العلاجية أيضًا. كما أوصيَ بقراءة سورة "الحمد" أو آيات أخرى على الماء لعلاج الأمراض[٤].

دور الماء في الزراعة

يؤكد القرآن في العديد من الآيات دور الماء في خصوبة الأرض ونمو المحاصيل الزراعية، مثل الفواكه والنباتات المتنوعة، والأشجار الكبيرة، والغابات والمراعي.

١. الماء وخصوبة الأرض

يؤكد القرآن الكريم في العديد من الآيات دور الماء في خصوبة الأرض. ففي الآيات ١٦٤ من سورة البقرة، و٦٥ من سورة النحل، و٦٣ من سورة العنكبوت، و٢٤ من سورة الروم، و١١ من سورة الزخرف، ذُكر دور الماء في إحياء الأرض بعد موتها: ﴿**وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾. ووفقًا لمعظم المفسرين، فإن إحياء الأرض يشير إلى نمو النباتات.

من الآيات الأخرى التي تبرز دور الماء في خصوبة الأرض، الآية ٣٩ من سورة فصلت والآية ٥ من سورة الحج: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾.

٢. الماء والمحاصيل الزراعية

كما تؤكد العديد من آيات القرآن الكريم دور الماء في نمو المحاصيل الزراعية، والنباتات المتنوعة،

١. المصدر نفسه: ٤٥٣؛ الخصال: ٦٣٦.
٢. وسائل الشيعة: ٢٦٥/٢٥
٣. مستدرك الوسائل: ٣٢/١٧.
٤. الكافي: ٣٥٦/٦؛ نور الثقلين: ٤٢٧/٣.

والأشجار الكبيرة. كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنْبَتْنا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[١]. وقد أشار بعض المفسرين إلى أن ذكر بعض المحاصيل في هذه الآيات يعبر عن فوائدها المتعددة.

وفي الآية ٩٩ من سورة الأنعام، نجد تأكيداً لكون الماء هو العنصر الأساسي لنمو النباتات والمحاصيل الزراعية والفاكهة: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

كما توجد آيات أخرى تشير إلى كيفية مساهمة الماء في نمو أزواج النباتات، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾[٢]؛ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[٣].

عدَّ أغلب المفسرين السابقين زوجية النباتات بمعنى أنواع النباتات وأصنافها، وقالوا إن الآيات المذكورة تهدف إلى بيان هذه الحقيقة وهي أن الماء هو مصدر حياة أنواع وأصناف النباتات بألوانها وأطعمتها وخواصها المتنوعة. ويحتمل العلامة الطباطبائي أن الآية تشير إلى وجود الذكور والإناث بين النباتات[٤].

وفي الآية ١٠ من سورة لقمان، يصف الله النباتات التي تنمو بالماء بأنها "أزواج كريمة": ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾. وقد فسّر المفسرون هذا الوصف بأنه يشير إلى قيمة وفوائد النباتات، وطهارة ثمرها، ونموها الجيد.

كما يظهر دور الماء في نمو النباتات في آيات أخرى مثل الآية ٤٥ من سورة الكهف، والآية ٢٤ من سورة يونس، حيث يُقدم الماء كمثال على الحياة الدنيا: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ووصف الله تعالى في الآية ١٠ من سورة لقمان النباتات التي تنمو بسبب الماء بـ "الزوج

١. عبس: ٢٥-٣٢.
٢. طه: ٥٣.
٣. لقمان: ١٠.
٤. الميزان: ١٧٠/١٤.

الكريم": ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾. وللمفسرين في تفسيرها أقوال مختلفة، مثل: الشريف كثير المنفعة[١]، والفوائد التي لا تحصى[٢]، ونقاء الثمر[٣]، والنمو الحسن، والطعم والرائحة الطيبة[٤]. كما أن الله تعالى أظهر دور الماء في النباتات في الآيتين ٤٥ من سورة الكهف و٢٤ من سورة يونس بطريقة جميلة جدًا: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾؛ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾.

والآية ٦٣ من سورة الحج تخاطب فطرة الإنسان وتطرح السؤال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ هذه الآية، إلى جانب بيان أن الماء هو سبب خصوبة الأرض وازدهارها، تظهر أن التأمل في ظواهر الطبيعة هو الطريق الذي يؤدي بالإنسان إلى التوحيد. وفي نهاية الآية، تُبيّن حقيقة أن نزول الماء وخصوبة الأرض به هو من علامات دقة علم الله ومعرفته الشاملة بكل شيء، ظاهرًا وباطنًا، بما في ذلك الأشياء والإنسان.

ويتحدث الإمام علي عليه السلام بعبارات في ذروة البلاغة عن دور الماء في نشوء النباتات والمنتجات الزراعية. فذكرَ أن الله سبحانه وتعالى يرسل السحب المتتابعة لتحتضن الطبيعة مثل الأم الحنون، بينما تؤدي الرياح الجنوبية الباردة دورها في استخراج الندى الناتج عن المطر، ومن خلال زخات المطر، يروي الأرض.[٥]

٣. الماء وظهور الحدائق، الفواكه والغابات

أكد الله سبحانه وتعالى في العديد من الآيات دور الماء في إنشاء الحدائق الجميلة والفواكه المتنوعة والملونة. ففي الآية ٦٠ من سورة النمل، أكد دور الماء في خلق الحدائق المزدهرة، مع الإشارة إلى أن هذه الأمور هي بتقدير الله، وأن البشر غير قادرين على زراعة الأشجار: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾. وفي الآية ٣٠ من سورة عبس، أكد دور الماء في ظهور الحدائق والفواكه، مع الأشجار القوية: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾. وفي الآية ٥٧ من سورة الأعراف، بعد تأكيد قدرة الله على خلق جميع أنواع الفواكه بالماء، يُربط ذلك بمسألة عقائدية مهمة، حيث يبين أن الله الذي يستطيع أن

١. روح المعاني: ٦٥/١١.
٢. الميزان: ٢١٦/١٦.
٣. مجمع البيان: ٤٨٩/٨.
٤. التبيان: ٢٧٣/٨.
٥. نهج البلاغة: الخطبه ٩٠.

يخرج الفواكه المتنوعة من الماء، قادر على إحياء الموتى بعد موتهم أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وفي العديد من الآيات الأخرى، بالإضافة إلى بيان أن الماء هو العامل في نمو أنواع الفواكه المختلفة، بُين أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الفواكه كرزق ووسيلة لاستمرار حياة عباده: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[1]. وفي الآية ٢٧ من سورة فاطر، أكد قدرة الله على إخراج الفواكه ذات الألوان من الماء غير الملون: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾.

٤. الماء وظهور المراعي

تحدث القرآن الكريم في العديد من الآيات عن الماء وعلاقته بظهور المراعي. ففي الآية ١٠ من سورة النحل، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، حيث يبين الله أنه هو الذي أرسل الماء من السماء، وأن الإنسان يشرب منه، بينما ترعى الحيوانات النباتات التي تنمو بفضل ذلك الماء.

وفي الآيات ٢٥ و٢٦ من سورة عبس، نجد تأكيداً لدور الماء في ظهور المراعي والنباتات: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ حيث ذكر كيف أن الله أنزل المطر من السماء، ثم شق الأرض لتنمو منها الحبوب والفواكه والمرعى من أجل الإنسان والأنعام.

أما كلمة «أبّ» في القرآن قد وردت مرة واحدة، وتعني الأراضي العشبية والنباتات البرية التي تنمو وتُستخدم كمراعي للحيوانات. وقد ذكر الإمام علي عليه السلام في تفسيره لهذه الكلمة، أنها تشير إلى النباتات البرية والمراعي[2].

١. إبراهيم: ١٤، ٣٢
٢. الإرشاد: ١/٢٠٠.

نتيجة البحث

الماء ودوره في البيئة له مكانة كبيرة في القرآن الكريم، حيث تُستخدم كلمات مثل النعمة، الرحمة، البركة، والرزق للإشارة إلى قيمة الماء في خلق الكون.

أُشير في آيات القرآن إلى الدورة الطبيعية للماء وأدواره المختلفة في خصوبة الأرض وإحيائها، وتجميل الطبيعة، ونمو النباتات المتنوعة، وظهور المراعي، والمزارع، والحدائق التي تحتوي على أشجار متنوعة، وكذلك الفواكه المختلفة.

ووفقًا لتعاليم القرآن، يعد الماء مصدرًا للحياة ولاستمرارها. ووفقًا لاكتشافات العلم البشري، يُعد الماء العنصر الأساسي الذي يشكل الخلية، ويؤدي دورًا أساسيًا في جميع الكائنات الحية، مما يجعل العلاقة الوثيقة بين البيئة والماء تُعد معجزة إلهية مستمرة.

القرآن الكريم يُذكّر بأهمية الماء في حياة الأمم السابقة، ويعد الماء الصالح للشرب للإنسان والحيوان من مظاهر قدرة الله العجيبة في خلق العالم. كما يلفت القرآن نظر الإنسان إلى الاستفادة من هذه النعمة التي لا تُقدر بثمن.

لقد بُين دور الماء في خصوبة الأرض، ونمو المحاصيل الزراعية، والفواكه، والنباتات المتنوعة، والأشجار القوية، والغابات، والمراعي في العديد من آيات القرآن.

مصادر البحث

القرآن الكريم
١. ابن عاشور، محمد طاهر، تفسير التحرير والتنوير، د/ت.
٢. ابن عربي، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، د/ت.
٣. الأصفهاني، حسين بن محمد الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، دمشق، دار القلم، ١٤١٢ هـ.
٤. الآلوسي، السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ.
٥. أمين، أحمد، طريق التكامل، ترجمة: محمد إمامي شيرازي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦١ش.
٦. بازرگان، مهدي، باد وباران (الريح والمطر)، تحقيق: سيد محمد مهدي جعفري، د/ت.
٧. بازرگان، مهدي، مطهرات در إسلام (المطهرات في الإسلام) طهران، انتشارات، ط٧، ١٣٤٧ش.
٨. جنيد، صلاح الدين عارف، الركام المزني والظواهر الجوية في القرآن الكريم، ، دمشق، الزرعي، ١٤١٩هـ.
٩. الحويزي، عبد الله بن جمعة العروسي، تفسير نور الثقلين، تحقيق: هاشم رسولي محلاتي، قم، إسماعيليان، ط٤، ١٣٧٣ش.
١٠. خوئي، التنقيح في شرح العروة الوثقى"، تقريرات بحث آية الله خوئي، تحقيق: ميرزا علي تبريزي، قم، أنصاريان، ط٤، ١٤١٧هـ.
١١. دائرة المعارف بزرگ اسلامى، (دائرة المعارف الإسلامية الكبرى) مركز دائرة المعارف بزرگ إسلامي، تحت إشراف سيد محمد كاظم موسوي بجنوردي.
١٢. الراوندي، قطب الدين، فقه القرآن، تحقيق: سيد أحمد حسيني، قم، مكتبة مرعشي نجفي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
١٣. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧ هـ.
١٤. سليمان، أحمد بن محمود، القرآن والطب، بيروت، دار العودة، ١٣٦٠ش.
١٥. سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط١٧، ١٤١٢ هـ.
١٦. السيوطي، عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، قم، مكتبة آية الله مرعشي النجفي، ١٤٠٤هـ.
١٧. شريعتي، محمد تقي، تفسير نوين (التفسير الجديد)، طهران، شركة سهامي انتشار، ط٦، ١٣٤٦ش.
١٨. الشيرازي، ناصر مكارم وآخرون، تفسير نمونه (التفسير الأمثل) طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٤ش.
١٩. الصادق، مصباح الشريعة، منسوب إلى الإمام جعفر الصادق، بيروت، الأعلمي، ط٢، ١٩٨٣ م.
٢٠. الصدوق، الخصال، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، تحقيق: علي أكبر غفاري، قم، نشر إسلامي، ط٥، ١٤١٦هـ.
٢١. صدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، طهران، نشر صدوق، د/ت.
٢٢. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم، مكتب نشر إسلامي، جامعة مدرسين الحوزة العلمية، ط٥، ١٤١٧ هـ.
٢٣. الطبرسي، الاحتجاج على أهل اللجاج، تحقيق: إبراهيم بهادري ومحمد هادي به، طهران، أسوة، ط٢، ١٤١٦ هـ.
٢٤. الطبرسي، فضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تقديم: محمد جواد بلاغي، طهران، ناصر خسرو، الطبعة ٣ ، ١٣٧٢ش.
٢٥. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، ، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٢ هـ.

٢٦. الطوسي، محمد بن الحسن، تفسير التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد قصير عاملي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د/ت.
٢٧. الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، تحقيق: محمد جعفر شمس الدين، بيروت، دار التعارف، ١٤١٢ هـ.
٢٨. العاملي، محمد بن حسن بن علي الحر، وسائل الشيعة إلى تحصيل أحكام الشريعة، قم، مؤسسة أهل البيت، ١٤١٢هـ.
٢٩. العشري، عبد المنعم السيد، تفسير الآيات الكونية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ م.
٣٠. الفخر الرازي، التفسير الكبير، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠ هـ.
٣١. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، طهران، نشرات ناصر خسرو، ١٣٦٤ش.
٣٢. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تحقيق: سيد طيب موسوي جزائري، قم، دار الكتاب، ط٤، ١٣٦٧ش.
٣٣. كاشاني، ملا فتح الله، تفسير منهج الصادقين، طهران، مكتبة محمد حسن علمي، ١٣٣٦ش.
٣٤. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ش.
٣٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، مؤسسة الوفاء، ط٣، ١٤٠٤ هـ.
٣٦. محمد علي، سادات، زندة جاويد وإعجاز جاويدان (الحياة الأبدية والمعجزة الخالدة) طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٥٧ش.
٣٧. المفيد، الإرشاد، قم، مؤسسة آل البيت، ١٤١٣ هـ.
٣٨. النوري، ميرزا حسين، مستدرك الوسائل، قم، مؤسسة آل البيت، ١٤٠٨ هـ.